سحر الرّمز الصوفي في ترجمان الأشواق "لابن عربي"

أ. مسايل السعدي
جامعة سطيف 2

الملخص:

تتصدى هذه المقالة إلى دراسة بنية الرّمز الشّعري الصوفي، في ديوان ترجمان الأشواق لمحي الدين بن عربي، باعتبار أنّ الرّمز من المركبات الأساسية في التجربة الشّعرية بصفة عامة، والتجربة الصوفية بصفة خاصة، فتناولت خصائص الكتابة الصوفية وأرذفتها بالوقوف على سحرية الرّمز الشعري سواء من الناحية الفكرية أو الفنية والتغلغل في أعماق هذه التجربة العرفانية.

Résumé:

Cet article traité le symbole poétique soufis dans **Diwan Torjoman El-Achwak** de **IBN ARABI**. Le symbole et l'un des constituants principaux dans l'expérience poétiques en générale et l'expérience soufis en particulier j'ai parlé des caractéristiques de l'écrit soufis et de l'esthétique du symbole poétique

1. خصائص الكتابة الصوفية:

إنّ من خصائص الكتابة الصّوفية الإستعارة، فأغلب علاماته مستعارة من المعجم العاطفي الحسيّ التي يتداولها الغزليون من الشّعراء، يتخذها الصوفية قوالب لهم جاهزة للدلالة على أحوالهم الصوفية¹.
يقول: (من الرمل)²

واحرنا من كبدي واحرنا	واطرنا من خلدي واطرنا
في كبدي نار جوى محرقة	في خلدي بدر دجى قد غربا
با مبسما أحببت منه الحبا	ويا رضاها ذقت منه الضريا

ويقول ابن الفارض: (من الرمل)³:

آه وأشواقى لضاحي وجهها	وظما قلبي لذياك اللّمي
فيكلّ منه والألحاظ لي	سكرة واطرنا من سكرتي

فالمعاني في هاتين القصيدتين لا تكشف عن هويتها مباشرة، بل تحتجب خلف الأستار ولا تبدو إلا في هذه الصورة المجازية، التي تخفي وراءها مدلولات متعددة فالأشياء تتجرد من تشبيها والألفاظ تتجرد من لحائها لتكتسي دلالات جديدة مشرقة ويبقى الجواز احتمالي لأنّه لا يؤدي إلى تقديم أي جواب قاطع ذلك أنّه في ذاته مجال لصراع المتناقضات الدلالية وهكذا لا يُولد الجواز إلا مزيدا من الأسئلة⁴.

ومن هنا يقتضي منا تشريح البنى العميقة للنص للكشف عن المعنى الحقيقي المستتر، فالدلالة السطحية المباشرة للنص الصوفي تدور حول الغزل العذري أو الحب العفيف الذي يذكرنا بغزليات قيس بن الملوّح وجميل بثينة وكثير عزة وهذا الحب يستعذب الشاعر في سبيله الآه والألم.

أما الدلالة فتنطوي على قيمة رمزية خاصة تشير إلى الحب الإلهي الذي يجتاح الشاعر، ويفضي به إلى شوق وحنين جارفين إلى دوام حالة السكر والتجلي الإلهي، ومما يقوي دلالة الرمز في القصيدة الصوفية، استخدام الشاعر لمفردات المعجم الصوفي، التي أرى أنّها حكر على المتصوفة فقط، يتواصلون بها فيما بينهم ولا يفهمها إلا الذي عاش حالاتهم الخاصة، ومن بين المصطلحات التي يستعملها ابن عربي مثلاً الصحو فيعرفه: "رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي"⁵.

وليس هذا الوارد القويّ إلا التجليّ الإلهي، الذي يحاول الشاعر الكشف عنه في تجربته، "غير أنّ الكشف هنا لا يعني زيادة في جلاء المعنى ولا يعني نقله من حالة غياب إلى حالة حضور بل يعني تخفيفاً من شدة ظهور لتمكن رؤيته فكلّما ازدادت الشّمس إشراقاً وسطوعاً قلّت إمكانية التحديق فيها أي خفيت عن العين"⁶.

وهكذا تصبح الصورة الفنيّة في القصيدة الصوفية أشبه بالسحابة الرقيقة الشفافة التي تستر الشّيء كي يمكن النظر إليه والتحديق فيه دون أن نخشى الإحتراق. ومعنى آخر نقول أنّ الصورة في القصيدة "سحاب يغطي شمس المعنى لكّتها في الوقت ذاته طريق إليها، إنّها الظاهر الذي يشير إلى الباطن، ولهذا فإنّ من يكتفي بالنظر إليها ضمن حدود الظاهر الحسّي، يرى المعنى ظلمة ويكون مرتبطاً بالظلام غير أنّ من يتجاوزها وينفذ إلى باطنها يرى المعنى في نوره الحق ووجوده الحق"⁷.

ومن خصائص الكتابة الصوفية أيضاً استعمال المعجم الخمري، "وما في حكمه من علامات كالمدام والخمر الصرف والشّم والدوق والشرب والري والنهل والنشوة والسكر والصحو، وآنية كالكأس والقوارير والأباريق وما في حكم ذلك... وهي في أغلبها من الألفاظ النواسية التي يتداولها أهل الشرب والتهتك ومعاقرة الخمر المادية يأخذها الصوفية علامات لهم جاهزة للدلالة بما على أحوالهم الصوفية العالية وقت الحضور والتجلي"⁸.

ولذلك ما كان لهم أن يلجأوا إلى الشعر الخمري لو أنّه لم يكن يوافق عندهم حالة من أحوالهم الصوفية، فاتّخذوه رمزا وإشارة مثلما اتّخذوا شعر الغزل، ولعرفة ذلك التوافق كان لأبد من عقد موازنة بين الخمر المادية ومجانها وبين الخمر الروحية ومريديها، وإبراز العلائق بينها، لنكتشف بوضوح لم اتّخذ المتصوفة الشعر الخمري المادي رمزا يعبرون من خلاله عن بعض أحوالهم؟.

فقد نقرأ نصّاً صوفياً مغرقاً في رمز الخمرة فتبدوا مضامينه حستية في وصفها إلا أنّها تقع في تماس مع مدلولات تجربة الشاعر المتشعبة بالفبيض الصوفي فتتحول الخمرة إلى "موضوع مقدس يطوف به العارفون ويستلمون دنّه غير متحرجين من عيب أو دنس"⁹.

فالشاعر إذن يجمع في شعره بين طابع التجريد الميتافيزيقي والطابع الحسي العيني.

ولذلك يمكن القول أنّ في الشّعر الصوفي غموضا يكاد أن يكون سمة ملازمة لكل ما أُنشجه شعراء المتصوفة من شعر أحاط بتجربتهم الوجدانية والدليل على ذلك ما لمسته من غموض في ديوان ترجمان الأشواق.

2- الرمز:

لقد بدا لي قبل الحديث عن الرّمز في شعر ابن عربي، أن أعرفه لغة واصطلاحاً، إذ اتفقت المعاجم العربية على أن المادة "رمز" تعني لغة "الإشارة والإيماء" غير أنّ الاختلاف فيها يقع في وسيلة الإشارة والإيماء أتكون باللفظ؟ أم تكون بأحد الجوارح أم غيرها من الأشياء؟ فالزخشيري يذهب إلى أنّها تكون "بالشفتين والحاجبين" وضرب مثلاً حيث قال:

"دخلت عليهم فتغامزوا وترامزوا"¹⁰ وفي موضع آخر كلمة "رمز" في قوله تعالى: "قال ربّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزا..."
بالإشارة أيضاً ولكن في تفسيره "كما يكلم الناس الأخرس"¹¹ دليل على أن الإشارة عنده لا تكون مصحوبة بصوت يزيل بعض إبهامها وخفائها.

في حين يتوسع الفيروز أبادي¹² أكثر من الزخشيري حين يجعل "الإشارة والإيماء" بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو الفم أو اليد أو اللسان، ولم يوضّح - مع ذلك - الإشارة باللسان هل تكون بصوت أو بدونه؟ ويرى الجاحظ أن الإشارة -زيادة على الجوارح- يمكن أن تكون كذلك "بالمكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف"¹³

والواقع أنّ ابن منظور كان أوضح منهم جميعاً بسبب توسعه رغم أنه لا يخرج عن كون "الرمز" هو "الإشارة" بأحد الجوارح أو غيرها من الوسائل المتاحة، إذ يرى أنّ الإشارة تكون أيضاً "تصويتاً خفياً كالهمس ويكون تحريك الشفتين بالكلام غير المفهوم من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين وقيل الرّمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم والرّمز في اللّغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ"¹⁴

والخلاصة ممّا سبق، أنّ الرّمز بمعناه اللّغوي هو الإشارة وأحدهما يعني أحدهما عن الآخر - من حيث الدلالة اللّغوية - عما في المكنون، وقد أورد أحد الباحثين¹⁵ هذه الأبيات للدلالة على أنّ الرّمز والإشارة بمعنى واحد (من البسيط):

وقال لي برموز من لوحظه أنّ العناق حرام قلت في عنقي

وقال آخر (من الطويل):

من غير أن تبدي هناك كلاماً

رمزت إلى مخافة من بعلمها

مثملاً قال آخر في دلالات الإشارة (من الطويل)

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مدعورة ولم تتكلم

فأيقنت أنّ الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم¹⁶

لنستنتج أنه لو وضعت لفظة "أشارت" محل كلمة "رمت" أو العكس لما حدث تغيير في المعنى المقصود.

الرمز بمعناه الاصطلاحي:

لقد عرف العرب التعبير الرمزي في أدبهم قبل الإسلام وبعده، إذ كانوا يتذوقونه بمعناه لا بلفظة الصريح وعرفوه بعد الإسلام مصطلحا نقديا متداولاً أحياناً وبما ينوب عنه من المصطلحات في أكثر الأحيان كالإشارة والمجاز والبديع.

وإذا كان الرمز بمعناه الاصطلاحي الحديث هو: "الإيحاء أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللّغة في دلالتها الوضعية"¹⁷ فإن امرئ القيس قد استخدم هذا اللون من التعبير الإيحائي المستتر في معلقته عندما يصف الليل، يقول (من الطويل)¹⁸:

"وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تمطى بصلبه
علي بأنواع الهموم ليبتلي
وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها اللّيل الطويل ألا أنجل
بصبح وما الإصباح منك بأمثل"

فالشاعر هنا لا يقصد ظواهر الألفاظ وما تشير إليه من دلالات معروفة متداولة وإنما يصور حالة من حالاته النفسية المضطربة وعاطفة من عواطفه المنفعلة لما نزل عليه من هموم الدنيا لتختبر قدرته على التحمل. فهو هنا لم يلجأ في التعبير عن كل هذا إلى المباشرة، ولكنه لجأ إلى المجاز والإيحاء إذ أوردت هذه المقطوعة ومثيلاً كثيرة للدليل على أن أدباء العرب عرفوا التعبير الرمزي كذوق علمي، ولكنهم لم يعرفوه كمصطلح إلا بظهور الإسلام وظهور حركة نقدية وبلاغية على يد مجموعة من الباحثين أمثال ابن المعتز، قدامة بن جعفر، أبو هلال العسكري، ابن رشيق، عبد القاهر الجرجاني، ابن الأثير...

وقد تطور الرمز على يد المحدثين تطوراً ملحوظاً يقول أدونيس: "اللّغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة أو هي القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة إنّه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالماً لا حدود له"¹⁹.

فالرمز الذي لا ينقل القارئ بعيداً عن حدود القصيدة ونصّها المباشر لا يمكن القول أنّه الرمز الذي هو في الأصل معنى خفي وإيحاء وامتناء وقد مجده شعراء الغرب وعلى رأسهم بودلير "Boudlér" الذي يرى: "كلّ ما في الكون رمزا وكل ما يقع في متناول الحواس رمزا يستمد قيمته من ملاحظة الفنّان لما بين معطيات الحواس المختلفة من علاقات"²⁰.

ولذلك يمكن القول أنّ الرمز ينبثق من المجاز اللّغوي نفسه حين يضغط الشّاعر على بعض الألفاظ في القصيدة ضغطاً مركزاً يتجاوز كثيراً حدّ الإشارة، المهم من كلّ هذا أنّ مصطلح الرمز قد تعرض لكثير من

التعريفات التي لم استطع أن أحصرها في هذا المقام، ولكن ما يجب الإشارة إليه هو ما مدى أهمية الرمز في التشكيل اللغوي؟.

لقد اتخذ الشعراء من الرمز أداة للتعبير، بدعوى أن اللغة العادية عاجزة عن احتواء التجربة الشعورية وإخراج ما في اللاشعور وتوليد الأفكار الكثيرة في ذهن القارئ فالرمز تستطيع اللغة نقل هذه التجربة واحتياز عالم الوعي في عالم اللاوعي فتلد وتوحي وتتساقط على ذهن القارئ مثل المطر، لذلك بات من الواضح أنّ القصص الرمزية والحكايات المبطنّة والإشارات الخفية التي لا يفهمها إلا من كان على درجة عقلانية رفيعة تهدف إلى فهم أفكار عرفانية، تتفاعل وتتكون في مخيلة الكاتب، لتجسيد آراء ربما يخاف من إطلاقها صريحة لما يحيط به من عوامل سياسية أو دينية، ومن كل هذا فالرمز الشعري له ارتباط وثيق بالتجربة الشعورية التي يعانها الشاعر لأنّ طبيعة الرمز غنية ومثيرة.

وما تجدر الإشارة إليه أن الرمز لا يتأتى، للجميع لأنّ هناك صعوبات تكمن في اقتناص الرمز وفهم مدلوله مضافا إليها اختيار الموقع المناسب له ومدى استجابة بقية العناصر الجمالية له، ومن هنا فإنّ العملية الرمزية لا تحقق هدفها ما لم تكن الرموز مبنية بناء فنيا جميلا، فإذا أحكم الشاعر رموزه الشعورية، وتكمن من إخضاعها لتجربة استطاع أن يوقع المتلقي في ذلك الفضاء السحري الذي وقع فيه، وهنا تكمن وظيفة الرمز إذ "ليست وظيفة الرمز أن ينقل إليك أبعاد الأشياء وهيئاتها كاملة ولكنّ وظيفة الرمز أن يوقع في نفسك ما وقع في نفس الشاعر من إحساسات"²¹.

لما رجعت إلى ترجمان الأشواق وجدته غاصّا بالرموز التي استلهمها ابن عربي من مظاهر البيئة والطبيعة ومن الشّعري العربي القديم ومن مختلف الثقافات والفلسفات وقبل أن أوضح هذه الرموز رأيت أنّه لا بدّ من الإشارة إلّا أنّ نظرة ابن عربي إلى الرمز في ديوانه لا يعده ديدنا، يريد من ورائه تحقيق الجمال الفنّي والأدبي وتوسيع الفضاء الشعري وخلق المتعة الأدبية، وإنّما نظر إلى الرمز على أنّه وسيلة لتثبيت الفكرة وتعميقها وإعطاؤها البعد الحقيقي الذي لا يقف عليه إلّا من تبحر في العلم.

"وليس الرمز الصوفي إلّا فكرة مبنية، ومذهبا يذهب الصوفي ثم يضيفه مقحما على الأشياء، أمّا الإستعمال الفني، فيكون فيه الرمز ابن السياق وأباه معا ولا يعرف الرمز الفنّي تبيت الأفكار في خارج القصيدة"²² وابن عربي في مقدمة ديوانه يشير إلى أنّ الرموز الموظفة في القصائد كالأطلال والرياح والسحاب والرياض والحمام... الخ.

ما هي سوى إشارات لمعان صوفية باطنية عرفانية، ولذلك وجب على القارئ أن يصرف النظر عن المعنى الظاهر وهو نفسه يقول في مقدمة ديوانه (من الرمل)²³:

"كلّ ما أذكره من ظلل
وكذا إن قلت هي أو قلت يا
وكذا إن قلت هي أو قلت هو
وكذا إن قلت قد أجد لي

وكذا السحب إن قلت بكت
منه أسرار وأنوار جللت
أو ربوع أو معان كل ما
أو هموا أو هن جمعا أو هما
وكذا التّهر إذا ابتسما
أو علت جاء بها ربّ السما
كلّما أذكره مما جرى
أصرف الخاطر عن ظاهرها جاء فيه
وإلا وإن جاء فيه أو أما
قدر في شعر أو أنّهما
ذكره أو مثله أن تفهما
واطلب الباطن حتّى تعلما

ليظهر للقارئ أنّ ديوان ترجمان الأشواق، هو صورة للمحبوبة وهي صورة لها قوتها الرمزية الضّاربة في ما وراء الطبيعة، فالطبيعة ممثلة في صورة الجمال الإنساني والتي يسميها ابن عربي حكم الإشفاق وهي ضرورية للعبور إلى ما وراءها.

وبعد كلّ هذا سأحاول استخراج طائفة من الرموز وردت بكثرة وسأعتمد على ترتيبها كما وردت في الديوان:

الصفحة	رمزها الصوفي	اللفظة
15	حكمة إلهية تحصل للعبد في خلوته فتقتله	بليّس
15	البر والإكرام	طنافس
15	الإبل المسمّنة وهي رمز للأعمال الظاهرة والباطنة	البزل
15	رمز للأرواح في حسنّها	طواويس
16	مقام الرفعة والعلو	إدريس
17	إشارة إلى النور	توراة
18	رمز للإنجيل	قسيس
18	إشارة إلى التوراة	حبر
20	موطن الحياة وسرها إذ كان من الماء كلّ شيء حي	ماء
22	الشّوق الذي يجذبهم إلى منازل الأحيّة	الحادي
22	رمز للحمال والشّهوة	أحمر
23	رمز للنزاهة عن الشّهوة النكاحية	أبيض
25	حالة سليمانيّة واردة من مقام سليمان	سلمى
26	رمز لحجاب اللّيل	ظلام الليل
30	رمز للعبد والتّور والشّوق والتنزيه	البان
31	رمز للأنفاس الشّوقية	ريح
31	مقام التلونين والتحول من حال إلى حال	قلب
33	القوالب المحسوسة التي تحوي بداخلها المعاني النفسية	صخرات
37	إشارة على المناجاة الإلهية	رعد

37	رمز للأحوال التي تنتج المعارف	سحاب
37	قلب الإنسان بما يحمله من معارف إلهية	خميلة
38	إشارة إلى الجمال واللذة ورمز القبة هو اللامتتهي بسبب شكلها الكروي	القباب الحمر
39	رمز للخلق	زهر
40	واردات التقديس والرضا والتور والتزيه	حمام
42	حالة العارفين النفسية المجهولة التي تسترهم عن بقية الناس	برقع
42	اللطيفة الإلهية والظباء رمز للحكم الإلهية	ظبي
42	الحكمة الإلهية محجوبة بحالة نفسية وهي أحوال العارفين المجهولة	ظبي مبرقع
44	فنون العلوم الإلهية	روضة
45	اسم موضع يشير من خلاله إلى الجمال الطبيعي	ذو سلم
45	رمز للأتوار الإلهية	شموس
50	مقامات المحب والغيرة والصدق	خيام
51	رمز للسبب الموجب للفرق	غراب
54	موضع الظهور الكوني (عالم الحس والشهادة)	شرق
54	رمز للموطن الطبيعي الصوري	ترب
55	المرتبة الرابعة في التحليات (ذوق، شرب، ري، سكر)	سكر
62	المستترات في الخدور وهي إشارة للمعارف	دمى
62	رمز للتكاليف والأعمال كونها تحتوي على أسرار العلوم	خدور
66	هي الصورة الذاتية (الإلهية) التي هي مطلب العارفين	فتاة عروب
66	رمز لحافظ ما تحمله العلوم	راعي النجم
66	رمز للمشغول عن الحق والمتغافل عنه	راقد الليل
68	رمز للهمم وهي الإبل	العيس
69	رمز الواد المقدس الذي ظهرت فيه المعارف الإلهية	وادي
71	المقامات التي ينزلها العارفون بالله في سيرهم إلى ما لا يتناهى من علمهم بمعبودهم	منازل
71	رمز لمقام التجريد لأن البياب هو الخراب	بياب
71	آثار العارفين بالله وسماها دراسة لأنها متغيرة	ربوع دراسة
72	إشارة إلى عدم الثبوت لأن الرمل تنقله الرياح دائما	زرود
73	السبيل التي يهديننا الحق إليها بعد الجهاد	جبال
73	المواضع الغيبية	أغوار
78	رمز للميل	مرضى
80	الحكم الإلهية واللطائف والإشارات العلوية	الكواكب

83	رمز للعلوم الشوارد التي لا تنضب	غزلان
87	هي مقام المناجاة الذي محله الفم	ثنايا
88	رمز للمعارف التي تنزل على قلوب فيها جهالات	الندى
89	رمز الآتي بالإنس والملاطفة والوعد الجميل	الهادي
90	هي رمز للسحاب والركائب هي الإبل	ركائب
90	رمز إلى رؤية الحق في الخلق وهو مشهد ذاتي	برق
91	إشارة إلى العلم الإيماني الذي يحصل بالوهب والكشف ويكون نتيجة الإيمان الحقيقي	خزء
92	رمز للذي تصبغ بلون غير لونه الذي خلق عليه وفيه إشارة إلى التنزيه	دمقس
95	رمز لموضع الفصل بين الحقائق الليلية الهيكلية (حقائق الجسد) والحقائق النورية (حقائق الروح)	سحر
101	هو رمز لمقام الحياء	ورد
101	إشارة إلى المقامات	الديار
101	رمز إلى آثار منازل الأسماء الإلهية بقلوب العارفين	الطلول
101	هو الخراب ويشير به إلى أثر المجاهدات والمعارف والتجليات	بلقع
106	رمز للصورة التي يقع بها التجلي وهي تختلف باختلاف المعتقدات والمعارف وهي حضرة التبدل والتحول	فلك
107	رمز الزينة الإلهية	تاج
107	رمز شريف غير مدنس	تبر
109	رمز لأنواع المعارف	فنون
111	إشارة إلى نفس عارف مثله فوهت بأمر علوي	قمرية
112	رمز إلى العواطف الإلهية لأنه منعطف الوادي	جزع
115	قلب العارف التقي النقي الذي وسع الحق حقيقته	البيت العتيق
146	رمز للأسماء الإلهية والحقائق المقدسة	بدور
148	إشارة على عقله وإيمانه	خليلي
168	إشارة إلى مقام الحياء	شفق
191	رمز المعارف الحاصلة من التجليات الذوقية	حسان

الاستنتاج: من خلال هذا الزحم الكبير من الرموز الصوفية فقد بدا لي أنّ ترجمان الأشواق جاء مليئاً بمذه الروح الرمزية، التي تحاول أن تعبر عن اللامحدود وتحاول أن تتخطى اللّغة وما تحويه من معجم بات عاجزاً عن احتضان رؤى هذا الشاعر المتصوّف حتى النخاع.

ما تبين لي أنّ كل الرموز التي استخدمها الشاعر في شحطاته الصوفية واجتهاداته قد اقتبسها من الملاحظة العينية أي ما وقعت عليه عيناه مثل: الغزلان، الظبي، العيس، الورد، الثياب، الخيام، الأطلال، الحمام، الغراب، السحاب، الرياض... إلخ، وفي هذه النقطة بالذات أسجل مدى توفيق وقدرة ابن عربي على توظيف

الرمز فيأبى الدال الرّمزي مطابقاً للمدلول مثال ذلك: إدريس الذي جعله رمزا إلى الرفعة والعلو إذ أنّ الله تعالى وضع نبيه إدريسا في مقام عال قال تعالى: "وإدريس رفعناه مكانا عليا" كذلك لفظة قلب التي رمز بها إلى مقام التلوين لأنّ القلب اتخذ في الواقع اسمه من تقلباته المتعددة إذ لا يدوم على حالة واحدة فمرة يحب ومرة يكره وثالثة يشفق وهكذا، ولفظة غراب التي رمز بها إلى السبب الموجب للفراق وهذا لكون الغراب في التراث العربي نذير شؤم وأي دار نعق فيها غراب إلّا وكان مألها الاختيار والنزال.

وإذا كان ابن عربي قد استلهم رموزه الصوفية مما شاهدته في الطبيعة فقد تعدى ذلك واستلهم أيضا رموزه من ثقافته الواسعة التي شملت الديانات والفلسفات والشعر والأدب.

وتبين لي أثناء دراسة الرّمز في ترجمان الأشواق أنّ ابن عربي قد وظف الرّمز الأسطوري، الذي يستخدم فيه القصص الإسلامية والتي يحوّلها بفضل تحويراته إلى أساطير²⁴ إذ نراه يجمع بين شخصيتين وردا ذكرهما في القرآن الكريم وهما شخصيتان متباعدتان تاريخيا فبلقيس ملكة سبأ تتمشى فوق صرح الزجاج في شكل شمس على فلك حجر إدريس وهي قاتلة بلحظها لتظهر معجزة نطقها الذي هو عيسى قال (من البسيط)²⁵.

من كلّ فاتكة الأحاظ	إذ تمشّت على صرح الزجاج ترى
تحي إذا قتلت بالّلحظ منطقتها	خالها فوق عرش الدرّ بلقيسا
شمسا على فلك في حجر إدريسا	كأنّها عندما تحي به عيسى

ومن هذه الأبيات تظهر بلقيس بوصفها محبوبة ابن عربي يتأمل صفاء ساقية المرميتين المضيئتين فيجلس أمامها تلميذا يتلو ويدرس كأنه موسى (من البسيط).

توراها لوح ساقيةا سنا وأنا	أتلو أدرسها كأنّي موسى ²⁶
----------------------------	--------------------------------------

إضافة إلى الرّمز الأسطوري هناك رمز آخر في الترجمان يسمى بالرمز الصوتي، إذ يكتسب صفة الرّمزي من صوته مثال ذلك لفظة منى التي يرمز إلى التمني لأنها اسم مكان يطره الحجيج، ومن شروط هذا المقام الطّهارة وحاجر مقام الحرمة، لأن التحريم حجر ومنع. وخروج لفظي منى وحاجر على هذا الرّمز الصوتي العميق إنّما جاء نتيجة للطاقة الصوتية التي يحملها.

يقول (من المتقارب)²⁷

مبي مبني نلتها ليتها تولعت من لعلع بالتي رمت رامة صببت بالصبا	وشامت بريقا على بارق
تدوم إلى الزمن الآخر تريك سنا القر الزاهر	وحجرت الحجر بالحاجر بأسرع من خطر الخاطر

وفي الديوان أيضا رموز صوتية أخرى مثل:

لفظة فنن هي رمز لأنواع المعارف، والفنن هو الغصن وأورده نظرا لما في اللفظة من فنون وكذلك جنج التي تشير إلى العواطف الإلهية، لأن اللفظة في الأصل هي منعطف الوادي ولاحظ ما بين كلمة المنعطف والعواطف من علاقة صوتية وعن هذا الرّمز الأخير يقول ابن عربي (من الطويل)²⁸:

بالجزع بين الأبرقين الموعد فأنخ ركائبنا فهذا المورد

لا تظلمن ولا تنادي بعده يا حاجر يا بارق يا ثمهد

وما تجدر الإشارة إليه أن الرمز الصوّتي، لا يحمل قيمة إلا أنه ضروري لصوفي يرى تقلب الصور كلمح البصر، وإذا عرفنا ما يحققه هذا الرمز من قيمة صوتية موسيقية تأتي في جمل متنوعة فيما بينها، فإننا سوف نقف على القيمة الجمالية والحقيقية لهذا الرمز.

كما استنتجت من دراسة الرمز عند ابن عربي استعماله لنوع ثالث من الرمز وهو الذي يستخدم فيه الكناية يقول الشاعر²⁹:

ثم زيدا من حاجر وزرود خبرا عن مرايع الغزلان

فمرايع الغزلان اكتسب صفة الرّمزية بالكناية لأنّ الغزلان كناية عن النساء الجميلات، وهي في الوقت نفسه رمز لعلوم الشاردة التي لا تتضببط، ومعروف أنّ الصوفي يوظف المرأة رمزا صوفيا عرفانيا، إذ تكثر هذه الصور في ديوان ابن عربي فيغدو كل ما هو جميل كناية عن الجمال يقول في قصيدة طنب الحسن (من مجزوء الرمل)³⁰:

بأثيلات النقا سرب قطا ضرب الحسن عليها طنبا

نلاحظ أنّ سرب القطا كناية عن المرأة أو كناية عن مجموعة من النساء، وهذه الأخيرة أيضا هي رمز صوفي. إضافة إلى أنواع هذه الرموز هناك ضرب رابع استقرأته من الديوان ويتعلق بالرمز الأسطوري، الذي أذكر منه على سبيل التمثيل لا الحصر شخصية قيس الذي جن بسبب حبه لليلي، ويصبح لشدة لما توحى به اللفظة صوتيا فقيس تحيلنا مباشرة إلى القسوة فيقول ابن عربي (من الطويل)³¹:

لنا أسوة في بشر وهند وأختها وقيس وليلى ثم مي وغيلان

وما يجب الإشارة إليه في الحديث عن الرمز، هو أنه لا يمكن تفكيك كل الرموز الواردة في ترجمان نظرا لخصبها وغناها، ولكن قد لفت انتباهي رمز أكثر الشعراء من ذكره حتى صار موتيفا، ألا وهو الريح وما له من علاقة رمزية بالمحبوب فالريح حسب الشاعر هو رمز للأرواح أي عالم الأنفاس لا رياح ذلك العالم الطبيعي هذا في حالة حملها لأخبار المحبوب³²، وقد وردت الرياح في الترجمان في المواضع الآتية:

في قصيدة لا عزاء ولا صبر (من الطويل)³³.

فقلت للريح سيرى والحقي بهم فأهم عند ظل الأيك قطان

فالريح في هذا البيت هي رمز لعالم الأنفاس الشوقية.

في قصيدة: رعود بين الضلوع (من الكامل)³⁴:

فحرت مدامعها وفاح نسيمها وهفت مطوقة وأورق عود

فالنسيم هو رمز لهبوب الواردات

في قصيدة رواية الصِّبا (من الطويل)³⁵

روته الصِّبا عنهم حديثا معنينا
عن البث عن وجددي عن الحزن عن كربي
والعننة هنا تأكيد الإسناد إلى الريح لأنها قد تكذب
في قصيدة تناوحت الأرواح (من الطويل)³⁶

تناوحت الأرواح في غيضة الغضا
فمالت علي بأفنان فأفنان
ويشرحها ابن عربي بقوله: الأرواح جمعه روح وإذا أراد جمع ريح فإنه يريد عالم الأنفاس
في قصيدة قف بالمنازل (من الكامل)³⁷:

فقفوت أسأل عنهم ريح الصِّبا
هل خيموا أو استظلوا الضالا
فقلت تركت على زرود قبايم
والعيس تشكوا من سراها كسلالا
قصيدة قف بالطلول الدراسات (من الكامل)³⁸:

وسألتها لما رأيت ربوعها
هل أخبرتك رياحهم بمقيلهم
قالته نعم فقالوا: بذات الأجرع
مسرح الرياح الذاريات الأربع
فهو هنا يضيف الرياح على الأحبة
قصيدة واحربا من كيدي (من الكامل)³⁹:

ريح صبا يخبر عن عصر صبا
بحاجر أو يمخى أو بقبا
فريح الصِّبا هي نسيم روح المعارف الإلهية من جانب الكشف، فكأنَّ هذه الريح تخبر عن أوان الميل
بالأعطاف الإلهية.

قصيدة طلب الحسن (من الرمل)⁴⁰:

يا شمالي يا جنوب يا صبا	أي ريح نسمت ناديتها
لقد لقينا من هواهم نبا	هل لديكم خبر مما نبا
عن نبات الشَّيح عن زهر الربى	أسندت ريح الصبا أخبارها
فليعلل بأحاديث الصِّبا	إن من أمرضه داء الهوى
مثل ما خبرته أو أعجبا	ثم قالت: يا شمالي خبري
شاركت فيه الشَّمال الأزيبا	قالت الشَّمال: عندي فرج
وعذابي يرزاهم عذبا	كل سوء في هواهم حسنا

فلاحظ في هذه الأبيات تواتر الحوار بين الرياح التي هي رمز للأنفاس التي ترتقي بالعارف إلى المقامات
الرحمانية.

قصيدة الدليل الطيب⁴¹:

ما تستدل ما تحت خلفهم إلا بریحهم من طيب الأثر
فألريح جاءت مضافة إلى الضمير الذي هو رمز للأحبة، وتصبح بذلك رمزاً لأنفاس الأحبة.
قصيدة حرب الهوى (من البسيط)⁴²

ما عسعس الليل إلا جاء يعقبه تنفس الصبح معلوم من الحقب
ولا تمر على روض رياح صبا تحوى على كاعبات خرد عرب
إلا أمالت ونمت في تنسمها بما حملن من الأزهار والقضب

يقول ولا تمر أرواح التجليات على روض القلوب الحاوي على الحكم اللطيفة والمعارف الحسية الحاصلة من
مقام الحياء والجمال

قصيدة تاج كالعذراء (من الكامل)⁴³

والريح تلعب بالغضون فتثني فكأنه منها على ميعاد

قصيدة اللقاء السري (من الطويل)⁴⁴:

ألا يا نسيم الريح بلِّغْ مها نجد بأبي على ما تعلمون من الجهد

قصيدة ألم بمنزلهم (من البسيط)⁴⁵:

استنشق الريح من تلقاء أرضهم شوقاً لتخبرك الأرواح أين هم

وهنا تصبح الرِّيح رمزاً للأرواح

وبعد هذا الحشد المكثف لرمز الريح، هذا الدال الذي أخرجه ابن عربي من مدلوله المتعارف عليه، إلى مدلول استلهمه من فكرة الصوفي، ليصبح رمزاً للأرواح وتكون الرياح هنا كناية وتعبير غير مباشر عن الروح، ويبدو لي أيضاً أنّ الشاعر قد وفق في اختيار هذا الرمز ووفق أيضاً في الإكثار منه، أولاً لذلك التوافق بين الريح والروح، وهنا يكون الرمز صوتياً وثانياً لطبيعة وماهية الروح والرياح، فكلاهما إسمان لا يمكن إدراكهما بالعين ولكن قد نحسها إحساساً باطنياً فالروح جسم طبيعي فيه كثافة إذ رآه المرید المبتدئ، أنفاساً رحمانية.

فلم ير إلا كثافته أما ابن عربي كشيخ متمكّن فإنه يرى وجه الله في كل شيء كما أنه يرى كل شيء في الله⁴⁶. وهنا تصبح الطبيعة أداة طبيعة في يد الشاعر يوظفها كيفما شاء ويسقط عليها من عرفانياته ما شاء.

كما أسجل في ختام هذه النقطة قدرة ابن عربي على التلاعب بالألفاظ وذلك من خلال الرموز التي يسبغها عليها مثال ذلك:

- سلمى رمز إلى الحكمة السليمانية الواردة في مقام سليمان

- هند إشارة إلى الهند التي هي مهبط آدم.

- نجدوا إشارة إلى منطقة نجد ومرة يحولها إلى منجد أو نجد.

- أتهموا إشارة إلى منطقة تامة ومرة يحولها إلى متهما أو تهام.

- الفنون جمع فنن وهي لأنواع المعارف.
 - الشيخ الذي هو رمز للميل لأنه مشتق من الفعل أشاح بمعنى مال.
 و خلاصة القول فإنّ ابن عربي كان يعتمد في شرح رموزه على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وذلك ليشفع لرأيه، لذلك فقد وفق أحياناً في إيراد رموزه التي أضفت على القصيدة مسحة جمالية فنيّة ارتقت بالنص الشعري إلى أسمى صور البلاغة، ولكنه بالمقابل فشل أحياناً في توظيف الرّمز ليس من الناحية المعرفية بل من الناحية الجمالية إذ لم يصف الرّمز أية قيمة جمالية بحيث لا ينسجم أبداً مع نغم القصيدة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- مختار جبار: (سيمائية الخطاب الشعري عند الصوفية)، مجلة تجليات الحدائث، ص 49.
- 2- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 104.
- 3- ابن الفارض: الديوان، مطبعة حجازي، القاهرة، د ت، ص 65.
- 4- أدونيس: الصوفية والسوريالية، دار الساقي بيروت، ط1، 1992، ص 144.
- 5- زكي المبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص 61.
- 6- أدونيس: الصوفية والسوريالية، ص 146.
- 7- المرجع نفسه، ص 147.
- 8- مختار جبار: سيميائية الخطاب الشعري عند الصوفية، ص 49.
- 9- عاطف جودت نصر: الرمز الشعر عند الصوفية ص 374.
- 10- الزمخشري: أساس البلاغة، كتاب الشعب، 1960، ص 251.
- * آل عمران الآية 41.
- 11- الزمخشري: الكشف ج 1- القاهرة- 1343هـ، ص 429.
- 12- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، القاهرة مطبعة بولاق، (د.ت) ج 2، ص 177.
- 13- الجاحظ: البيان والتبيين: ج 1، ص 57.
- 14- ابن منظور: لسان العرب- دار صادر- بيروت 1955- ج 5 ص 356.
- 15- درويش الجندي: الرمزية في الأدب العربي، ص 42.
- 16- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 57.
- 17- غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة -بيروت-، ط3، 1983، ص 398.
- 18- يوسف بن سليمان الشمنتري: أشعار الشعراء الستة الجاهلين، ص 54.
- 19- أدونيس زمن الشعر -دار العودة بيروت- ط3، 1980، ص 160.
- 20- ينظر: فتوح احمد -الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار القاهرة، ط3، 1984، ص 112.
- 21- فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص 241.
- 22- مصطفى ناصف: الصورة الأدبية -دار الأندلس- بيروت، ط2، 1981، ص 155.
- 23- ابن عربي: مقدمة ديوان ترجمان الأشواق، ص 9.
- 24- ينظر سليمان العطار: الخيال والشعر في تصوف.
- 25- ابن عربي ترجمان الأشواق، ص 15.
- 26- المصدر نفسه ص 16.

- * الرمز الصوتي رمز يعتمد على التورية والألغاز والإيقاع المتقارب بين الكلمات.
- 27- ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص 139.
- 28- المصدر نفسه، ص 112.
- 29- المصدر نفسه، ص 86.
- 30- المصدر نفسه، ص 132.
- 31- المصدر نفسه، ص 44.
- 32- ينظر: سليمان العطار: الخيال والشعر في تصوف الأندلس، ص 238.
- 33- ابن عربي: ترجمة الأشواق ص 30.
- 34- المصدر نفسه، ص 37.
- 35- المصدر نفسه، ص 54.
- 36- المصدر نفسه ص 40.
- 37- المصدر نفسه ص 71.
- 38- المصدر نفسه ص 104.
- 39- المصدر نفسه، ص 102.
- 40- المصدر نفسه ص 130.
- 41- المصدر نفسه، ص 152.
- 42- المصدر نفسه، ص 187.
- 43- المصدر نفسه ص 168.
- 44- المصدر نفسه ص 189.
- 45- المصدر نفسه ص 197.
- 46- سليمان العطار: الخيال والشعر في تصوف الأندلس، ص 240.